غرف نصف مضاءة

قصة بقلم موسى كريدي

يتنفسان ببطء طوال الفترة .. كانا هرمين . مرابطين داخل حجرة نصف مضاءة . حجرة رطبة . كان كل منهما يمسك بطرف ويتحسسه برفق . كان ابوه على اليمين وامه على الشمال . وهنالك اربع اذرعة تمتد مرة واحدة تقلب الجسد الساكن في خشوع المصلين . كانت اخته تستمع اليهما وهي في شبه اغفاءة وكانت شفتاها تتقلصان فتبدو الزرقة فيهما واضحة . ظل يحدق في شفتيها المزرقتين بينما ينتصب وجهه ازاء وجهها غائما . مرر اصابعه في بطنه وغاص بها جهة الخاصرة ثم ترك الحجرة دون ان يقول كلاما . وفكر . ينبغي البحث عن ملجأ لا بد انه موجود الان في اخر الدنيا .. هبط السلم ، والتقط الشارع بعينين نصف مفتوحتين ولحظ تنفسه البطيء رغم انتظامه . واغمض عينيه فرأى خيال المكان هالة مضيئة ما تزال تنمو بسرعة لكنها ما تلبث ان تنفرط وتغور في قاعات من الظلمة ، سرية . وتتسع في مخيلته من جديد ممرات من الرمل ، واذن ، فلم يكن هناك عشب ولا ظل لشجرة واحدة .. يلزمك الان ان تريح رأسك وتنسى كل شيء عدا كونك تحمل رأسا .

اسند مرفقه على قاعدة مثلثة الشكل لصخرة مدورة وابصرالصحراء فلم ير الرمل مثلما كان يراه في طفولته نقيا ، ابيض ، بل رأى نقاطا بحجم حبات الخردل تموج باسود واخضر وتنتشر على مدى بضعة امتار من بؤبؤه . ظنها في البدء شبكة متحركة من الرمل . حاول مرة ان يبعدها وكان يتمتع بقدر كاف من الوعي فلم يستطع ابعادها . حرك رأسه كي يتحرك الدم . كان يراها تتقافز على الجانبين مثل اسماك البحر . اغمض عينيه ثانية ثم فتحهما على سعتهما . كبرت حباتها، وكبر خوفه معها ولازمه الدوار . مرغ جبهته بباص كفه وفرك عينيه فلم يفلح في قتل الشبكة .

*

لم يتنبه نافع سلمان للغبار الذي لفه فجاة اذ داخل شعره وصدره ادار وجهه نحو الصوت الزاحف نحوه .. انه صوت ارتطام الفناجين .. طالما استوقفه في الطريق.. طالما استقبله ووقف ازاءه منصتا. اشار للبدوي بابتسامة . كان الرجل طويلا في الاربعين . وجهه اسود بلون الفحم وعيناه حادتان . مشعتان. لمح نافع فيهما بريقا نفاذا ورأى عبرهما وجهه كاملا ورأى فيهما الفناجين وهي ترتطم في راحة يده . ظل يلعبها بمهارة عبر ابهامه وكان يتعمد ان يحدث رنينا ذا ايقاع حتى يسمع على بعد . كان الرجل البدوي يقذف في الوجوه المارة كلمته المعتادة :

ـ اكهوة يا شباب .

مد نافع يده كالشحاذ ولم يكن يتوقع من البدوي حركة غير مالوفة . حرك يده وادناها اشارة منه فلم يستجب بل ازداد غيظا . كان كماه الابيضان ملمومين اعلى ساعديه قليلا وكانت الدلة في يمينه والفناجين في يده اليسرى . هش وجهه بعض الشيء وهو ملتفتلنافع. صب القهوة السوداء لكنه سرعان ما توقف . وخاف . دخل في سره ان الرجل البدوي سيرمي بالدلة والفناجين في وجهه . وسحب يدا متراجعة وجعلها في جيبه ولم تخرج من فمه اية كلمة ازاء هذا الفعل.. حدق البدوي في وجهه بغضب :

ـ يمينك

هذا البدوي يصدر اوامره اليّ . ضحك نافع واستحال عليه ان يتصوره ، تلك اللحظة ، في نبرة رجل عسكري . ضحك مرة اخرى ولم يبد اي حراك خلال الضحك وكرر الرجل كلمته بنبرته الخاصة فعرف نافع ماذا يعني .. رفض البدوي ان يرى يده اليسرى تمتد . فما زال الفنجان حائرا بين اصابعه السود وما زالت القهوة السوداء ساخنة ، لذيذة . تصاعد رائحتها ببطء الى انفه .. حين مد نافع يده اليمنى سمع صيحته :

ـ اي .. نعم .. يا هلا .

اشغل نافع يده الاخرى . يده اليسرى . اخفاها لئلا يثير حفيظته هل يحق له في اللحظة ان يشك في عقله ؟ اعطاه الفنجان برقة ثم رماه بابتسامة مرددا .

ـ هلا .. هلا .

تذكر نافع حداء الابل وامتداد الصحراء وشبكة الرمل . تذكر زرقة الفراغ ايضا .. كان لهاتين اللفظتين في نفسه ايقاع عذب ، عميق ، يسمعه الان بشغف يصدر لاما لها رنينها الخاص .. هلا .. هلا .. ورشف الفنجان الاول تلمظه كالقطة . تحسس لسانه طعم القهوة اللذيذ ورأى البدوي ينحني قليلا وينفخ في انبوب الدلة موقدا الجمرات الصغيرة في جوفها الاسطواني بينما لم يكن لسانه لينقطع عن ترديد لازمته :

ـ هلا .. هلا

مضيفا اليها :

ـ يعمي اليمين .. اليمين افضل .

« هل باستطاعتي ان انسى ان اليد اليمنى خير من اليد اليسرى؟»

قال نافع ذلك وهو يرشف الفنجان الثالث . ثم اردف :

ـ يا عم .. روحك طيبة .

حاول ان يقول ذلك بلهجة البدو فالتفت الرجل اليه بكامل هيئته وبدا وقورا وحازما وقال :

ـ حنّا .. سخيين اليماني ..

فقال نافع هازا راسه :

ـ يمينك لو شمالك ؟ اي فرق ؟

اراد ان يقول له لماذا اليمين بالذات فقال البدوي بثقة :

ـ العطا .. يبه باليمين ..

وردد اللازمة : يا هلا .. يا هلا .

ودعه مبتسما بعد ان دس في يده قطعة نقود صغيرة ولم يكد يتركه يخطو بقامته المديدة على الارصفة حتى عاد الى مجموعة الاصدقاء يروي لهم لحظة لقائه الغريب مع البدوي وما جرى له بشانها . ضحك الاصدقاء كثيرا . وسخروا ، واعتبروا ذلك نكتة .

*

رغم مضي نصف ساعة ورغم انشغاله بقضية السفر (وهي تؤرقه منذ زمن) فانه ما زال يذكر مقولة البدوي بشان وظيفة اليد اليسرى (الوظيفة الميكانيكية) التي يحتقرها كثيرا ولا يتعامل معها اذ يعتبرها مخلوقة لقانون (النجاسة) فقط ، ومع هذا فلم الاهتمام بهذه المسالة ؟ الا تبدو سخيفة ؟ لماذا علقت بذهني اذن ؟ لا شك انه يستطيع التخلص من هذا القبش بمجرد اعمال فكره في الطريقة التي ينبغي ان يتم خلالها الرحيل خارج اطار المقهى ، وحلقات الدخان ، وحدود الرائحة المضفوطة التي تتصاعد مع تصاعد قرقرة الماء داخل قنينة صدئة . حاول ان ينحي الرائحة الكريهة كي لا يدعها تغزو رئتيه وهو جالس يستمع .. ماذا عساه يستمع ؟ خطى تصعد واخرى تعلو نحو المجهول (ما يزال الدخان يصعد هو الاخر) اذا لم ير فان له اذنين بهما يصغي للصوت الاتي من بعيد (هرب بعض من كانوا حوله) ثمة رجلان . يصلان . كم بوده لو يراهما رؤية العين وهما يختصران زمانا بعيدا .. القمر الان يحط في راسه (هناك تنين يقعد داخل المقهى) .. رجلان من الارض يتمشيان فوق تخوم القمر الذي يحط الان في راسه (رجلان آخران يشكلان معه مثلثا تملاه الموائد الفارغة)

ـ نركيله بره ...

صاح رجل المقهى . وتحركت شبكة من الرمل ممتدة من الداخل حتى ظاهر المدينة . كانت الشبكة مقوسة كالسماء وكانت تنحدر ببطء نحو رؤوس بارزة لحجارة تشير الى مقابر عتيقة وفوق امتداد الشبكة العريض تنطبع الان بصمات قدمي الرجل البدوي . لم يعد نافع الان ليسمع صوت الرجلين المتجولين بصمت داخل الجمجمة .

ـ متى تسافر ؟

سال اخوه الاكبر . لم يكن في الحقيقة يسال . كان يستفسر :

ـ غدا او بعد ساعات .

ـ مؤكد ؟

لماذا يصر على معرفة هذا التاكيد ؟

ـ لقد قررت هذا منذ ايام .

ـ اعرف ولكني لا احبذ لك هذا .

قال نافع لاخيه

ـ انت لن تفهم .. لن تفهمني ابدا .

وفكر . اني جرحت كبرياءه . آلمته على اية حال . كان اخوه هذا يكبره بعشرين عاما وهو لا يشبهه ابدا . غير انه كثير الشبه بوالده فهو يزن الاشياء بميزان ابيه . يحمل السيف ويبكي مثلما يبكي الوالد الكبير ويستظل براية (الطرف) ويلطم ساعات ان احوجه اللطم .. ما زالت خطواته ماثلة في مخيلته وراسخة كمنابر الحسين ، يريده أن يعدو خلفه ساحبا عباءة سوداء تخط التراب لكنه يسلك طريقا اخر .

* * *

خلف الشباك كان يرتدي ملابسه وعيناه تتجهان نحو الزقاق الواقع تحت الغرفة التي تهتز على الصوت مثلما تهتز الفوانيس وهي تضيء الازقة في الليل . كان ضوؤها الشاحب يضرب الى الصفرة تماما مثل وجه امه ايام النفاس .. ما زالت امه ترضع حفيدها . حملت ثلاثة عشر وانجبت عشرة ونسي انها طرحت اثنين آخرين طرحتهما في وقتين متباعدين . كان وجهها بلون التراب . وكان قصر قامتها يوحي بصغرها غير ان جسدها وهن كثيرا فلم يعد يقوى على المقاومة ... زقاق معتم وحجرة رطبة . وخمسة عشر فما ووجها يتحركون جميعا داخل الحجرة .. لا تعجب قال لك والدك ان ثلاث عوائل كانت تتنفس وتتناسل وتفرح وتحزن تحت سقف واحد وفي غرفة واحدة ولعلها الغرفة نفسها التي تعيش الان داخلها .. الغرفة تنحني قليلا نحو مستطيل الزقاق وحائطها المنتفخ تظهر فيه عين عميقة الغور تتسع كلما نقرتها الاصابع . ونظر اسفل الشباك فراى الحوض ما يزال مخضر الحواشي ، مملوءا ماء مرا. قالت امه .. ابني نافع . ان هذا الماء نظيف ان اردت ان تغتسل .. عميق هو ايضا . فعمقه بطول قامة رجل . مستطيل . وحافاته الاربع المتقابلة لا تصدأ وقاعة اسمنتي اسود تشحط الرجل فوق نتوءات حصاه وقت الاغتسال . وازاء الحوض ظهرت نافذة صغيرة يدخل الضوء خلالها متسللا بطيئا . النافذة غائصة في البناء . اذا مددت راسك لا تستطيع ان تتبين قاع السرداب فهو كهف سري تنام فيه العائلة مطمئنة طوال الصيف .

*

حاول ان يرى المراة العانس . كان يمد عنقه اسفل النافذة فيرى وشاحها الاسود ما زال يلف جسدها . لماذا اعتادت ان تلبس السواد . تلك حكاية . هو يعرف انها لم تفقد احدا حتى تحزن عليه . لم تثره ملابسها بقدر ما كان صوتها يوقظ حواسه .. في صوتها الوافد مثل الحلم كان يسمع خلاله هسهسة لذيذة ودافئة لا تكاد تلمس اعصابه حتى تستفز منه الجسد كله . اطلت في راسه ارضية غرفتها الان ، وسمع زحفا خفيف الجرس . كانت تدنو من مصراع الباب . تفتح الباب فيضاء نصف الغرفة . وتكتمل الاضاءة حين تفتح شباكا اخر ويصير ظهرها المكتنز قبالته فيستطيع ان يرى طيات اللحم الابيض في العنق . ظلت تكنس دون ان تلمحه ومد عنقه اكثر فلم ير نهديها فقد غابا خلف ركبتيها المثنيتين ، وظهر بياض فخذيها ايضا واستطاع ان يلمح اكتنازا اسفل ردفيها استراحت فوقه فضلة من ثوبها الاسود الخفيف . حين نهضت القت بالمكنسة جانبا وانتصبت قامتها ثم ما لبثت ان رفعت ساقها اليسرى ونظرت الى نهديها .. ونفت اصابعها فوق عظام الحوض وضغطت قليلا وهي تتنهد .

خلت الغرفة من الغبار فاغلقت النافذة وانزلت الستائر وتلاشى بعد لحظات وقع اقدامها وهي تهبط السلالم الحجرية . كان نافع تلك اللحظة بكامل هيئته . كان الزقاق تحته خاليا من لغط الصبيان وعراكهم سحب جرارته فاخرج مجموعة صور قديمة وزعها بسرعة مثل ورق اللعب ثم قرا خلفها تعليقاته . تذكر بعض الاسماء التي نسيها ثم اعادها الى ما كانت عليه بعد ان نفض عنها الغبار .. وعثر على قصاصات ورق في الزاوية المهملة ووجد بعضها مغطى ببصاق جاف وخرق مبتلة . رفع راسه ومد سبابته الى حفنة الكتب المصطفة فوق الرف القريب فخطف العناوين بسرعة . فكر في اقتناء كتاب او كتابين يصطحبهما في رحلته وسرعان ما اقلع عن الفكرة وعاد من جديد يحدق عبر قضبان النافذة ...

حين غمرت ظلمة الزاوية ظله لم يتحرك . وحين حطت ذبابة على جبينه ولامست مجساتها مقدمة حاجبه الايمن تركها على حالها . ولم تمكث الذبابة طويلا . حين طارت سمع زفيفها فقط والغريب انه لم يفكر في تتبعها بنظراته على عادته . وفكر ، يبدو انها سئمت الجو فغادرت . حاصره في اللحظة صمت ثقيل جدا . متمكن جدا . مسموع جدا . ومع ذلك فانه لم يشعر بلذة وهو داخل الحصار الذي استمر لبضع دقائق .

وضع الحقائب لصق عتبة الباب ووقف محدقا فيها وبدا حائرا

كمن يبحث عن شيء نسيه ، وفجاة حسب انه يسمع صوت « صائح » ياتي من بعيد وينسال في جمجمته مثل مياه تتسرب في كومة رمل . واختلط الصوت بانين متقطع كان يحس لهاثه ويشم رائحة احتضار على مقربة وجهه الذي اخذ يسخن بفعل حرارة يجهل مصدرها. خطا خطوتين او ثلاثا فعلم ان الصوت ياتي من اسفل . دنا كانه يهبط نحو قاع عميق ، سري . دنا اكثر كي يستجيب .. كي يراه . ورآه في الدرجة الاخيرة من السلم ازرق كثيفا . كاد يلمس زرقته الشبيهة بزرقة شفتي اخته الطريحة . صاحت امه فغاب الصوت الاول ولم ير الا شيئا حقيقيا ماثلا امامه يوجعه . فزع الى الحجرة المظلمة ودلف فشم رائحة نفاذة جدا . ثمة اعواد « بخور » تضيء في الظلمة وترسل خيوطها المتعرجة . كانت اخته ممددة مثل سمكة ميتة وكان والده يظللها بذقنه المليئة بالشيب . وتمتم ابوه . ورآه يحرك رأسه على اتجاهين . حين لمع بياض في عينيه وقلقت شفتاه لم يجد الا ان يمد يده الى يدي اخته وهما تختبئان تحت دثار بلون الطين . كانت يده تبكي في راحة اليدين النحيلتين المختبئتين تحت ذلك الدثار الغريني وكانت عيناه لا تفارقان شفتي ابيه وهما لا تكفان عن الحركة .

ـ لماذا لا ناخذها الى الطبيب ؟ (بصوت هادىء)

هز الشيخ راسه . بكت امه في الحال . صمت رطب في الحجرة فانتظار في الراس فهذيان فخطوط متعرجة تجوز راسه بقوة . قرب فمه منه وكرر طلبه مؤكدا ان حالتها باتت خطرة وان موتها مؤكد :

ـ انها مشلولة ، الا تفهم ؟

(صمت وتحريك شفتين ومسبحة)

ـ الا تسمع ؟

كان الرجل يسمع جيدا لكنه فضل ان يجيب ابنه بان يهز راسه او يسجد . لم يكن نافع يجهل هذا الامر ، ولكن ماذا يمكنه ان يفعل ؟

ـ قل لي لماذا لا ... ؟

وماتت صرخته امام حبات المسبحة السوداء الطويلة التي ما تزال بين انامله تتحرك حركة متوافقة مع اهتزاز شفتيه . كلمات غامضة بعضها مرتل ، والاخر مسجوع ما تزال تضج في حنجرة رجل انحنى ظهره وانسدلت اهدابه البيض وهي تغطي احمرار عينيه الساهرتين .

وصرخ نافع بنفاد صبر :

ـ ماذا افعل الان ؟

فقال له صوت آخر :

ـ ماذا تفعل ؟ الم تقل انك ستخرج ؟.

❋

يعصف في راسه مرات صدى لاغنية قديمة . سلك ممر الزقاق متجها نحو سوق المدينة . وبصوت مسموع كان يردد اللحن . لم يكن يغني ، غير انه كان يدندن ، ولم يعرف انه مطارد من قبل رجل في عمة بيضاء كبيرة لفت راسه وكانت اكبر مما ينبغي . تحرك نحوه فبدا في مشيته كما لو انه امراة حامل كان وجهه واضح الاستدارة ، وكان نعاله الاصفر يظهر ملمعا . مضى نافع متارجحا وبدا ثملا .. لم يستغرب نافع ملاقاته هذا الرجل ، لكن الذي استوقفه هو ظهوره فجاة بشكل برز معه مثل شبح ملتون خارج لتوه من دهليز يعترض سبيل الاخرين . شبح سمين ذو وجه صغير تعلوه عمامة اكبر من راسه يقف كالحية المريشة وراسه معقوف باتجاهه ونظراته تخز طوله وتدينه مباشرة:

ـ هه .. ماذا تريد ؟

تحركت شفتاه في اللحظة عشرين حركة وامسك بطرف عباءته الرمادية بيدين مرتعشتين وهم ان يمضي في الطريق العام وقبل ان يستدير سمعه وهو يرسل اليه نظرة سائبة من حافة عينه اليمنى :

ـ تف !

قالها بغضب ومضى . حين تلاشى وقع اقدامه تلاشى صدى الاغنية القديمة . هل يعرفني ؟ من عساه يكون ؟ لماذا ؟ لم يستطع ان يفسر هذا اللقاء بسرعة . كان ذهنه مشغولا بمسالتين : الرحيل .. واحتضار اخته ، وفي اللحظة ذاتها سمع تراتيل ابيه الرخامية وهو يسقطها بين لحظة واخرى فوق جسد اخته الممدد في رواق من الظلمة ، فما ان تضاءلت التسابيح برهة حتى عاد صدى الاغنية واهنا بطيئا . كان من الممكن ان يسمعه وهو يسقط في قاع جمجمته مثل قطرات مطر باردة ...

اجتاز الشارع المغبر وتذكر صدفة لحظة لقائه مع البدوي . وقف قليلا عند رأس زقاق ضيق جدا كما لو انه يقف على اثر قديم كي يسترجع مقولته بشأن اليد النجسة ، وتناهت في اللحظة نفسها كومة اصوات تبتهل وتضرع الى السماء على مسافة قصيرة وعرف حينئذ سر شتيمة صاحب العمة البيضاء الكبيرة ، والنعال الاصفر العريض . وضحك وهو يطأ مدخل سوق المدينة بقدمين مثقلين بنثار من طين حائل به خضرة داكنة ممتزجة بدقائق من روث قديم . كان من السهولة جدا ان يلحظ الرجل نفسه مرة اخرى وهو يسير خلفه مثل جاسوس .

❋

تحت راية مفروسة كالسهم تجمعوا عند المدخل الصغير للسوق . تمركزوا في شبه دائرة.. وظهروا مرة واحدةكتلة متراكبة تنمو بسرعةمثل تظاهرة ... لهم غتر بيض ، ولفائف خضر تلتم حول اعناقهم ، ولهم رؤوس ملثمة ، واخرى حاسرة تؤلف معا حركة واحدة . ينشق فجاة صوت قوي النبرات يقسمهم الى صفوف ويباعد ما بينهم بغية التحرك . الصوت يرسل بحته الحزينة وتهتز الرؤوس متجهة بابصارها نحو مدخل الضريح .. الراية تخفق في الهواء . يد صغيرة وناعمة ترفعها اعلى وتلوح بها كلما تقدم الموكب خطوة واحدة . ولصق الصبي وقف سيد ذو حزام اخضر كان يتدافع بمنكبيه وعيناه تتركزان في يدي الصبي الناعمتين وعنقه الرخوة وفتحة صدره . وقنصت السيد عين مفتوحة فاطلق يديه وجعلهما تضربان صدره بشكل مثير ومسموع وفاجع .. الناس في تدفق مستمر ما دامت الحوانيت كلها مغلقة هذا اليوم ، والحداد على الامتداد الطولي للشوق اعلن عنه قبل بدء النهار .. تزاحموا وارتفعت الاكف فتسقطت نقاط مستديرة من ضوء الشمس فوق الاكف المرفوعة ، والجباه المحروقة وبدت كرات الضوء متداخلة اكثر وهي تتشابك على طول الخط ويظل السقف القديم مثلثا يمتد .. وتظل الثقوب القديمة اعلى السقف ملفتة للنظر :

ـ لماذا ثقوب في السقف ؟

الزائر يسال انه مندهش لهذا .

ـ بسبب الرصاص .

المسالة مهمة اذن ..

ـ هل كانت ثمة معارك تدور هنا ؟

ـ لا ...

ـ اذن ما الامر .. اذا لم يكن رصاص فماذا ؟

ـ رصاص .. نعم .. هو رصاص ينطلق .

ـ لكن ؟ من يطلق ؟ لماذا ؟ كيف ؟

صمت الزائر ولم يعرف من ؟ ولم تطل الحيرة اذ لكزه نافع في خاصرته وقال :

ـ هوسات .. هوسات . الست من ابناء القبائل ؟

ـ ماذا تقول ؟ لا افهم ..

وهتف نافع :

ـ الم تشترك في واحدة على الاقل ؟

وتخيل نافع الرصاص وهو ينطلق في الهواء عابرا صفائح الالمنيوم والرنين يتطاير والضجة تعلو والرؤوس تهتز مع اصوات الرصاص المتدفق بسرعة لم تخطر على ذهنه في يوم من الايام .

❋

كبر الصداع في راسه الآن . الجموع تزرع خيبتها وندمها في اللافطة التي ترتفع اعلى المنابر . والرؤوس المعصوبة القروية تتحرك

تحت اسلاك الكهرباء ومدارج الخشب المصبوغ بالاسود حركة مجانية كلما ارتفع الصوت كانه النفير وهو يملأ فم (المايكرفون) . الواقف يجلس والجالس يصفي والصوت يهدر في اللحظات وظهر صاحب الصوت مثل ارنب بري متيبس الشفتين وهو يتنحنح قبل البدء . تلك عادة . كان يقف بطوله مرتديا عقالا اسود ثم يلقي بعباءته جانبا ويبدو امام الجمهور محتقن الوجه قلقا وتظهر عضلات رقبته بارزة وهو ينوح عبر جهاز الصوت بنبرات عالية جدا تهتز معها اوراق قصيدته .. تحلق الاطفال حول منبره ، وشخصت الابصار اليه . وكان بكاء ورائحة لحم طازج تأتي من خلف السوق . النساء يندبن باصوات كظيمة. رجلان يقفان كحارسين على جانبي المنبر ينقلان بالحركة والاشارة ماذا يعني الكلام ومتى تبدأ الجوقة برد (المستهل) الصوت يرتفع والنساء في دوي هائل . حين يهدأن يرمين صدور الرجال المراة نظرات زانية . الشمس خلف مثلث السوق ترسل بكرات الضوء لتتناثر فوق العباءات التي مالت قليلا وعيون الرجال تظل شابحة في فراغ مثقوب .

وسقطت عيناه فوق الاسد المرسوم في العضل . رجل اخر في شوارب غليظة له فوق زنده خطوط زرق . وفي المكان ذاته تدلى بطن الرجل الاخر الذي بدا يخلع معطفه اولا ثم انزل (دشداشته) للنصف ثم شدها على بطنه بردنيها المتسخين اذ جعلهما حزاما ، ومثله فعل الاخرون وهم يقفون على شكل طابور طويل ينتظر .. خلع (فانيلته) وظهرت كتلة من الشعر الاسود وهي تغطي الصدر العريض ، وتميزه . تحرك في مكانه فبدا مقدم صدره مترجرج اللحم . كان صدره مكتنزا فتبدو حلمتاه ظاهرتين . وكان شعر راسه غزيرا مشعثا . رفع يديه نحو صدره . تحسس الشعر فبدا الاسد الموشوم ازرق جامعا في زنده ثم انزل ذراعيه ببطء وكان يغمر خلال الحركة والسكون النساء القريبات نظرات نصفية منتشية .

لهم الازقة كلها ، ولهم اجساد نصف عارية تظهر متوحدة في حركة منتظمة واكفهم ما تزال ترتفع بانتظام نحو السماء البعيدة وتنزل فوق الصدور العارية محدثة صوت « طرقة » متحدة مع مثيلاتها . وايقاع اللطمة يجري وفق الكلمات المسموعة ذات النغم المصعد من حنجرة تحاول ان تخرج صوتا ممتلئا بانين اسرى من النساء ، مختلط ، بحشرجة اطفال مفقودين او يتامى يسيل في وجوههم دم (الرضيع) احمر فانيا بعد ان ناشه سهم الاعداء . الشعر الد الاعداء . انه يلغ في الدم دونما رحمة .. والدم ما يزال يخضب الان صدور الرجال العراة . حمرة الدم تكاد تنز عند الصدر مع كل (هبطة) كف جديدة .. اللطمة الواحدة تتكرر طوال ساعة تصحبها صيحة اشبه بشهقة الموت . هل سمعت بشهقة الموت ؟ ستقول لا .. اسمعها اذن . ضربات اخرى تتوالى في نزف رمادي مستمر . ترتفع الحمى في الرؤوس . الحركة في ذروة توهجها . الشمس خلف الرؤوس تماما . والحركات كلها الان تحتفظ بايقاعاتها المتوازنة . والرجل الارنب ما يزال يقرع اعلى اعناقهم وهو يضبط الحركة بالصوت مرة وبالاشارة مرة اخرى .

❋

تحرك نافع في الدقيقة العاشرة بعد الساعة الثانية عشرة حيث ارتفع صوت آذان الظهر يملأ اطراف المدينة فاستبطأ في سيره ولمح الغلام وهو يسير الى بيته منكس الراس .

❋

ـ لماذا تبكي ؟

ساله اخوه قبل ان يجتاز عتبة الدار ثم دخلا الباحة ، وانزويا معا وكرر سؤاله بهدوء فلم يستطع الطفل ان يفصح فالخوف يعصر قلبه ، واثر الراية ما يزال مترسبا في لحم راحتيه :

ـ ماذا بك ؟ تكلم ؟

وردد الصغير :

ـ لا شيء ..

ـ كيف تقول لاشيء ، وانت تبكي ؟

كان لا بد من احراجه، وخرج صوت الصبي واهنا :

ـ ضربني ...

حرك رأسه فسقطت نظراته فوق معطف اخيه ولمح بقعة تراب صغيرة ازاحها باصابعه :

ـ من ؟ من هو الذي ضربك ؟

ـ السيد ...

ـ اي سيد ؟ السادة كثر في هذه المدينة ؟.

ـ صاحب الحصان !. انت تعرفه .

وبلل شفتيه بلسانه واخرج منديلا ابيض ووضعه في راحته ثم رفع يده جهة العنق متحسسا الما مفاجئا :

ـ قل ماذا حصل بالضبط ؟

واسترسل الطفل في بكاء طويل .

عرف الآن كل شيء متذكرا زحام الناس في الاسواق حين شهد الموكب في الصباح وسمع الاصوات المرئية . خلع معطف اخيه النيلي ولمح اثر التراب جهة الظهر ما يزال بينا .. قال :

ـ غريب .. هل رآكما احد ؟

فقال الطفل بوضوح :

ـ حمد .. رآني خارجا .

ـ هل قال لك شيئا ؟

ـ لا .. كان يكتفي بالنظر اليّ .. والى (السيد) وهو يسوق الحصان .

❋

يكاد يلمس شعرها المرسل فوق كتفيها ، لكن يديه تكادان تهربان ، فالكيان المجسد امامه هارب منه هو الاخر . غير انه رغم هذا احس ان لديه يدين ما زال يذكر ان احداهما بكت في راحتي اخته والثانية ، ولعلها اليسرى ، (اليد التي رفضها البدوي) ما زال يشم منها عبر الرسغ والاصابع رائحة الطين والزحام والصراخ كانت تفح تحت كرات الضوء الشاحبة ، المسقطة فوق وجوه المرضى والمسنين وهم يزحمون اصابع يديه وحنجرته ويبثون في طيات جلده عرقا ملحيا وبكاء شبيها بعواء ذئاب جريحة .

❋

سنية تتقدم نحوه . في البدء لم يستطع ان يميزها وهي تمشي في عباءة سوداء ولا يظهر شيء من جسدها الممتلىء ، المكفن بالسواد . غير ان وجهها الضاج بالصفاء يوميء له ، يقترب .. فتحت عباءتها . ابتسمت . رأى زنديها عاريين ، بضين . لمح الشعر المختبىء خلف رأسها ولم يره وهو ينتشر مثل امواج البحر . واختلج العطر في جسده ، وطوقه صوتها العذب . خجل دافع واضطرب وجهه . وارى خجله ثم تشجع في النظر الى عينيها الواسعتين ، رأى في عمقيهما شيئا كان قد فقده . لم يقرأه من قبل ولم يقل شيئا ، فما عساه ان يقول ؟ انها تكبره خمس عشرة سنة . وبدأت الكلام هي :

ـ سمعت كل شيء ...

ـ ماذا سمعت بالضبط ؟

ـ انك ستسافر !

ـ هذا صحيح .

وقالت له :

ـ منذ متى تفكر في الرحيل ؟

ـ لا ادري بالضبط ، لكنني اموت ان لم اسافر .

ـ لا تبالغ ارجوك .

ـ صدقيني .

ـ طيب انا اصدقك فالى اي بلد ؟

يصل المحطة ورأسه على المخدة يصل بسرعة . بسرعة

بسرعة . يحمل خارطة وحقائب جديدة . يرتدي بدلة السفر يتحرك هو . والقطار يتحرك . العالم كله يتحرك ، يجتاز الليل والاحراش والمدن والانفاق وضباب الطريق . نافع يغني . يكتب قصائد عن البحر ، ورائحة العشب المبتل وازهار النيلوفر والخطى التي تنقر في الصباح ارصفة الميناء وهي تنفض عنها غبار السفر . وجهه في الثلج مطمئن والموسيقى ترن في الجسد الحالم ، وتصخب كما البحر . وشعره يتطاير في الريح بينما رأسه يستند الى صدر امراة شقراء لم يرها .. دفء وثلج يتساقط من قبعة ..

كان نافع يرى البلد بعين الخيال
قالت له العانس :

ـ اقترب .. انت متعب الان ، ماذا في فمك ؟
قال نافع :

ـ في فمي كرز احمر واخضر ورائحة شواء .
فتحت فمه فلم تر شيئا . قالت :

ـ كف عن الكلام .

ـ لن اكف حتى اقذف ما في رأسي ؟

ـ ماذا تقذف من رأسك ؟
قال نافع :

ـ الم اقل لك اكثر من مرة ان البدوي ما يزال يتجول في راسي وينام ؟
قالت .

ـ اي بدوي هذا ؟ لقد بدأت تهذي .

واقتربت منه . هدأته وغمرته بفيض ملتهب من صوتها .. غيبته في انسراحة الشعر واستعاد ببطء وعيه بينما يهبط الغسق .

*

كانت به رغبة ان يعبر اليها مباغتا وداخلا غرفتها .. نائمة هي الان والساعة جاوزت الثانية عشرة والليل خارج اطار الباب ، ثقيل وراسخ كالازقة واروقة الجوامع والغرف الاسطوانية الرطبة كالزوايا التي تغيّب اوجه الغلمان واجسادهم تغرق عارية الان فوق بساط اسود او حصير عتيق . قال نافع : لن يفجأ الليل بوجودي ولن تكون مفاجأة ان تستيقظ امراة على صوت غريب لكنها ستعجب وفي البرهة التالية سيزول العجب . لم لم تسافر ؟ الم تقل انك ستسافر ؟ ماذا حدث ؟ هل انت مجنون ؟ كيف تأتي في مثل هذه الساعة ؟ كان نافع يفكر في العانس كثيرا ، وبعد الساعة الواحدة قرر ان يبعد طيفها عنه فقد بدا طيفا ثقيلا . ود لو ينام هادئا مطمئنا يحلم مثل الاخرين لكنه لم يستطع فالنوم كخيال المكان الذي يريد .. فتح النافذة على صيف ملقى به في الزقاق الصغير وامتلأ الدم في رأسه اشتدت اصوات مجمعة كانت تصعد من قاع سري . انفتح باب القاع فجأة ، يكاد اللحظة ، يسمع خلال النافذة صوت ايقاعات موحدة يشتد معها عويل موصول ذو نبرات واضحة وقريبة . في الخطوة الاخرى تحولت الاصوات كلها الى طقس مختلط بدوار ، وزحام وعجلات وارتطام فناجين انهارت كلها وتحطمت ولم يتكسر بعد بريق الفناجين المجمعة في كف البدوي المتجول في رأسه الان.

اغلق على الاصوات الغامضة نافذته الصيفية فاراح نصف جسده الاعلى ممدودا كومة عظام مستباحة في الضوء الشبيه بلون النعاس . كانت غرفته الداكنة تحتمل هدوءه ولم تدم هذه اللحظة ، فثمة ايقاع آت ينفذ من فرجة الباب لم يتضح اول الامر ، ورغم ذلك فانه يكاد يسمعه منتظما مثل دقات الساعة وحالما اقترب منه اكثر فاكثر تنبهت اعصابه وانتصبت قامته ، فالساعة الان تقارب الثالثة والليل يهبط والايقاع يرتفع في الصمت فيؤكد مرة اخرى ان الحلم الان في اجازة . اي حلم ؟ وقف منصتا ، مستوفزا . وهو يستقبل الصوت الموقع . مد بصره ومن بعيد لمح خيال قوائمه .. لمح الراس والعرف المسدل فوق رقبته . مشى الخيال نحوه ثم توقف . لم يبرك . انه مشغول بالصهيل . ودوم الصهيل اكثر فاكثر فاهتزت اجنحة الوطواط النائم في الخربة المجاورة وتساقطت كالرطب اليابس حبات الخشخاش فوق الارض المشقوقة شقتين . سكن الحصان وظهر الراكب في الضوء رجلا صغير الوجه تقعد فوق رأسه القليل الشعر عمة اسطوانية الشكل نصفها احمر واسفلها شريط اخضر اللون . غليظ بعض الشيء ، متسخ يلتف حولها ، ثمة شاربان خفيفان وفم صغير بدت تحته شعيرات مثل الزغب الناعم غير انها وضحت اكثر عند حافة الذقن . تدلى مستطيل من قماشة خضراء بطول ذراعين من جانبي عنقه وبدا معطفه الاسود عتيقا مزررا من اسفل وفوق متنيه ظهرت سمرة غبار خفيف .

تحرك في محملي الحصان الواقف كاراية نعالان اسفنجيان ، ابيضان . ضغط الرجل ومال بجذعه ميلا واضحا وامسك باكرة الباب وطرق طرقتين ، منتظمتين فلم يسمع جوابا واعاد الطرق مرة اخرى فسمع صوتا شبه نعسان يأتي من الداخل .

ـ من ؟ من ؟
فرد بصوت غليظ قائلا :

ـ انا السيد .

ـ وماذا تريد ؟
واطل حمد من الشباك فقال :

ـ لماذا توقظنا هذه الساعة ؟
فقال السيد :

ـ الا تدري ؟

ـ لا ادري عمن تتكلم ؟

ـ اسمع يا حمد ، لا تكن مغفلا وسافلا .
فقال حمد : ـ

ـ لست مغفلا واما السافل فانت ..

ـ اسمع .

ـ لن اسمعك .. ماذا تريد مني ؟

نقل السيد عينيه في فضاء الزقاق نقلات مريبة وهو لما يبرح ظهر حصانه العاري الا من سيور عتيقة دهنية اللون . واخرج مسدسا صغيرا وبدأ يلعبه ويحركه خلال اصابعه على طريقة رجال العصابات وقال :

ـ افهم يا هذا .. ان شهادتك ضدي معناها انك ..

ـ اني ماذا ؟

ـ انك تعجل بموتك .
فقال حمد :

ـ اذهب يا سيد !
فقال السيد باصرار :

ـ لن اذهب اذا لم تقرر الان ؟

ـ اقرر ماذا ؟ لقد استدعيت للشهادة وكفى ..

ـ اذا اردت ان تنقذ حياتك فقل انك لم تر شيئا .

ـ كيف تريدني ان افعل ذلك ؟

ـ افعل ذلك فتنقذ حياتك .

ولم يرد حمد بل اختفى في الظلمة بعدها انزل الشباك الزجاجي بينما ظل السيد متحاملا يلقي بشتائمه وهو ممسك بزمام حصانه . ادار رأسه وارجع السلاح واتجه من حيث اتى وتلاشى بعد لحظات وقع حوافر الحصان .

*

لا اريد ان اقول لك اني انتصرت لكني لم اهزم امام الخوف . ربما هزمت مرة واحدة أو قل اثنتين . المهم اني اثبت شيئا امام نفسي

وقنعت لاني تعلمت كيف اتشجع . كنت الى وقت قريب اذا ما رايت عصفورا يذبح امامي هربت تخلصا من منظر الدم (اني بصراحة اكره حتى الان منظر الدم وانه لشيء صعب جدا ان تألف هذا المنظر وانـي اعجب كيف يستطيع الجزارون وعمال المسلخ ان يناموا دون كوابيس) .. هل رأيت عنقا نقطع .. في الحلم مثلا ؟ اما انا فافول اني رأيت اكثر من مرة ولم اخف .. في الحلم لا تخاف احيانا وانت تشنق زهرة او صديقا لك ، او تقبض على عنق مقطوعة كشجرة ثم ما تلبث ان ترميها في اقرب نهر . اتخاف انت ؟ في اليقظة هل باستطاعتك ان تلمس في هدوء جسد الميت ؟ تلمسه بيدين ثابتتين . ترى لماذا نخاف من لمس الميت ؟ هل ثمة فرق بين الميت وقطعة الخشب ؟ كنت اهرب اذا ما سمعت عن (ميت) يموت . ولم يكن بوسعي قط ان اتخيله وهو رهن التابوت . كان ذلك وحده يرعبني اما الان فاني استطيع ان اقلب جسد الميت : هل تستطيع ان تفعل ؟ هل تود ذلك ؟ وبالمناسبة فاني اريد ان اسألك .. اريد ان ..

« دقت الساعة اثنتي عشرة دقة »

كان نافع يصغي اليه وجسد رهمة البديري يتراءى له خلال الزجاج ويلح في الظهور . كان الخوف يتمثل له ، تلك اللحظة ، طائرا غريب الصوت يدف باجنحة سود ، وينقض فجأة . وكان رهمة البديري بوجهه الحنطي اللون ، المزق نصفه ، ولحيته التي لم تطل اكثر من اربعين يوما .. وقامته النحيفة ، وبالقبعة المستديرة السوداء المنقوشة فوق جبهته ، وبعباءته الملحية اللون ، المخرمة من اسفل يحضر الان بقوة ويصفعه بكف حمراء سقطت قبل ساعات قرب خان النص ... وجيء برهمة محمولا فوق سيارة كانت تنقل فيما تنقل الجواميس الى المدينة . كانت السيارة مكشوفة . وكان سائقها لا يعرف شيئا . القى السائق برهمة في ساحة الامام علي ثم مضى .

أقعيت الجثة في جنازة مفتوحة ، كانت ممددة على طولها . الوجه نحو السماء والقدمان حافيتان فيهما تشقق واضح ، متيبس يملأه تراب دقيق رملي اللون .. تجمع الناس . وقفوا مبهورين ، ثم مسحوا الجثة بنظرات نصف منطفئة . ونشرت النسوة المحجبات اصوات (اليبو) عالية ، واغتربت ملامح رهمة تحت مستطيل من الظلمة رغم شمس الظهيرة .

صاحت امرأة واقفة (ابني) ثلاث مرات . كانت مسمرة . وكان صوتها عاليا وظهرت ندبة سوداء فوق انفها . كانت تصرخ وتستغيث والرؤى تتجمع بل هي تتقابل اكثر فاكثر مثل حشد يتسع ويتضخم بسرية . امتلأت عيناها بالدموع . كانت في الاربعين بينما كان رهمة البديري في الخامسة والثلاثين .

تسمرت الوجوه في حلقة دائرية . انحنت ثم شملها سكون غير متوقع تتوزعها نظرات صامتة ، ثقيلة وخلال ذلك ظهر وجهان مثل قناعين كانا ملثمين فلم تظهر سوى اربع اعين صغيرة تتحرك بريبة وسط الجموع التي تحركت فجأة على صوت غريب فقال احدهم اين هي نقالة الاسعاف ؟ فقال الثاني فما هي الفائدة ؟ وقال احد الواقفين وكان عقاله الغليظ الاسود يتهدل في رقبته :

ـ انا اعرفه .. انه من قرية (السنية)

ـ انت متأكد . سأل الثاني . فرد على الفور :

ـ نعم رأيته هناك اكثر من مرة .

هدأت المرأة وبدأت تستعيد انفاسها ومسحت عن خديها بفوطتها السوداء بقايا دمعة . رأت رهمة بعينيها ثم مشت متمتمة باتجاه الضريح .. انحسر ضوء الشمس ، وانفضت حلقة الرجال الواقفين وبدا النور في الساحة اسود . وبلا صراخ رفع رهمة من على الارض وسمع صوت صائح من بعيد وهو يشق الزحام .

*

« كنت احمل جنازة ابي . كان التابوت فوق راسي . كنت اسير وحدي حاملا جسد الميت.. لمحت بشرا يسيرون ببطء وعلى اكفهم اشياء تشبه الصلبان ثم رأيتهم رؤوسا ترتفع في القمة بلا وجوه كأنهم يسيرون تحت شمس سوداء . كنت اتساءل وانا في الحلم . اهذه حقا جنازة ابي . قلت في الحلم . لا يمكن ان اصدق . ان ابي ما يزال حيا . اني اسمع صوته فلم يجبني احد من السائرين ولم اهتد الى جواب يقنعني . كنت امشي وكانت جنازة ابي فوق رأسي .. كنت امشي في الغبار بعين واحدة واعبر شارع زين العابدين متوجسا واصابع يدي تجس حافة النعش .. كان الشارع قصيرا ، محدبا وكان ينحدر باتجاه المقبرة .

ـ ما زلت تحلم ..

وتلفت نافع نحو صاحبه بوجه مضطرب وعينين ذابلتين . قال . ماذا كان يدور في ذهنك . قل لي كنت تريد ان تسأل . اطرح سؤالك الان .

ضحك صديقه ببرود وقال .

ـ كان ذلك منذ فترة . اين كنت ؟

ـ كنت مع ابي وانا احمل جنازته ثم كنت مع رهمة البديري !

ـ ومن هو رهمة ؟

ـ ست وثلاثون سنة . خرج من قريته السنية ولم يعد .

ـ لا افهم اين هو الان ؟

ـ مات قبل ساعات ..

ـ هل تركته يموت ؟ (يخيل الي انك تشعر بذنب ازاء من يموت هذه الايام .)

ـ لم اتركه يموت . كان ميتا قبل ان اراه .

ـ اتريد ان تبعثه من جديد ؟

ـ كلا . طبعا .

ـ ماذا تريد اذن ؟

ـ اريد ان اعرف لماذا يحدث ان يموت رهمة البديري ؟

*

كان ذلك في المساء . كانا ملثمين . دخلا بسرعة .. دخلا في اطار من الظلمة ولم تكن هناك حركة داخل الزقاق وليس بوسع الاضواء البعيدة الواهنة ان تفضح احدا مهما كان . ومما سهل لهما الدخول ان الباب لم يكن مغلقا فلم يجدا اية صعوبة . دخلا في الظلمة واغلقا الباب وصارا معا في باحة الدار . ظلا يستطلعان الدار بحذر وينصتان مثل كلبين يتحفزان للافتراس . لم يسمعا اية حركة . كانت ابواب الغرفة ونوافذها مفتوحة والستائر لم تكن مسدلة . صعدا في الدور العلوي ثم نزلا نحو السرداب فجأة . ثم ما لبثا ان اقتربا من المطبخ واحدثا بادوات الطعام صوتا فلم يريا اي تحرك . فتشافي الطريق اسفل الدار ثلاث غرف فلم يجدا شيئا . ودخلا مرة ثانية غرفة نومها فاخذا يتحسسان وجه السرير فما وجدا غير ثوب خفيف ، وحمالة صدر كانت ملقاة فوق الشرشف . كان الشرشف ابيض . القت بايديهما بالاشياء جميعا . خفض واحد رأسه ونظر الى ما تحت السرير لعله يجدها وظل الاخر يفتش في زاوية اخرى .

ثم كفا عن البحث . قبل ان يهبطا الدرج المؤدي الى باحة الدار سمعا صوتا خفيفا . انصتا له لكنهما لم يتبينا شيئا غير انهما في اللحظة التالية صارا قبالتها . امرأة صامتة لم تصعقها المفاجأة . كانت تلف رأسها بشال ابيض وكان مقدم جسدها مستورا فلم يبد من جسدها شيء سوى ساقيها . وقفت على بعد ستة امتار منهما محدقة بغضب . كانا غير ملثمين امامها . عرفتهما . والغريب انها لم تصرخ بل ظلت تطيل النظر في ملامح وجهيهما الشريرين وقرأت ذلك في نظراتهما . عرفت كل شيء . صرخ الاول في وجهها : هذا قبرك . استريحي فيه . ضحك الثاني قائلا واصابعه باتجاهها : لا استطيع ان ارى وجهك القذر.

ابتعدي عني .. اخرجا من هنا . قالت ذلك فقال الثاني يهزأ : سنخرج حالا . واكمل الاول : بعد ان نعيد التراب . الا يروقك هذا ؟ اعادة التراب .. فقالت بقوة : اخرجا بسلام قلت لكما . كان جسدها يهتز وصوتها يتضح وبدا الشخصان شبحين فقال الاول : بقوة من تهددين ايتها الفأجرة ؟ فقالت : اخرج ايها الكلب . وكان الكلب هذا هو اخوها ، اما الثاني فكان قريبها .. كلب انا كلب .. نعم . انت تعرفين ذلك جيدا . انظري .. وفتح فمه وكشف عن اسنان سود وقال : تريدين ان انهش لحمك الفاسد . حسنا . انتظري . فقال قريبه على الفور: كلا دعني انا اولا ان لي درسا معها ، وقبل ان تفكر في الخطوة الاخرى ، هجم الاول بلكمة اطاحت بها داخل الغرفة المجاورة وتداركت سقطتها فاغلقت الباب بوجهه وهجما على الباب معا فكسراه ثم دخلا. كانت ممسكة بقنينة . القنينة مملوءة نفطا ابيض . رفعت الزجاجة اعلى رأسها وسكبت النفط الابيض . ابتل الشعر الاسود بالنفط الابيض . ولم يجد عود الثقاب . امسكت بالزجاجة وهي تبتعد . اقترب اخوها رافعا كلتا يديه وهو يكز على اسنانه ويلهث . وما ان اسقط يده اليمنى باتجاه رأسها حتى اتقت الضربة بعنق الزجاجة فانحنى مائلا نحو الباب وتهيأ ثانية للهجوم محاولا ان يمسك بشعر رأسها الطويل المنسرح جهة الخلف ، غير انها دفعته بقوة فارتطم بالنافذة . وحين عاود مرة ثالثة ليسدد هجومه المباشر نحوها بضربة قاضية تحطمت فوق رأسه القنينة الفارغة واستحالت شظايا . تناثر الزجاج ، النضاح بالنفط وغطت خطوط الدم ملامح الوجه المصفر ... ومسح بكفيه الدم مرسلا اليها نظرات حاقدة . وثارت حمية الاخر فأفتتح هجومه المباغت بتسديد الكلمات متتالية وسريعة لكنها قاومته واشعرته بضعفه . كان يلهث مثل الكلب امام قوتها . كادت تقتله .ولو انها حملت سلاحا لقتلته في الحال . وهكذا استمر الاشتباك اكثر من عشر دقائق . ضربات متبادلة . نزف . ودماء واتخاذ مواقع للهجوم..في الدقيقة الاخيرة حاولت ان تخنقه بساعديها فافلت منها بصعوبة .كان هذا نحيفا ، قصيرا ، وكان وجهه اصفر من الخوف . كانا يعتقدان انها مجرد امرأة من الممكن سحقها بالحذاء . وخلعت المرأة حذاءها بحركة مفاجئة ، وصوبته باتجاه الاخر فهجم هذا مرة اخرى محاولا ان يفرز اصابعه في رقبتها . كانت اطول منه فلم تدعه يقترب منها . كانت مكتنزة الجسد بعض الشيء . حين امسكت برأسه كادت تميته لولا ان الاثنين نهضا معا . ابتعدا عنها ثم اقتربا متجاورين بسرعة فخطفا خنجرين لماعين وتداركاها في اللحظة الاخيرة .

*

كان يحرك مسبحته الطويلة السوداء وعيناه البارزتان تلتمعان باتجاه الشارع ، وكانت العربات المحملة بالبرسيم ، وسيارات(الفولفو) تمر في عينيه ، وقبل ان يقعد خلفه كان يظن انه ما يزال يمازح(هوبي) المجنون بنكاته الجنسية ، واسئلته الغريبة . كان الافندي الجالس قربه يلح في الاستفسار عن مصير القتيلة ويطلب اكثر . وثمة ظلال كابية كانت تتنزه في جبهته . كان شعر رأسه يتطفل عند حاجبيه بفعل الريح . نظر الحاج خضير الى نافع بعينين ترمشان كثيرا . كانت تقاطيع وجهه الحادة ، المسمرة تشتد صرامة كلما غمغم وحده .. خفض عينيه باتجاه (الكشكول البرونزي) المستدير فوق الطاولة التي امامه وقال :

ـ هل تصدق .؟

ظل نافع يمسح عن وجهه المغلق حبات الملح الصغيرة وكان جلده يتقشر ، ويندى فقال بصوت مكتوم :

ـ لا ...

فاتخذ الحاج خضير يلعب بشاربيه القصيرين ويشتم الزمان .

*

وضع نافع راحة كفه على جبينه بحرارة مفاجئة . كان بوسعه ان يرى تلك النقاط الزرق وهي تتقاذف امام عينيه متساقطة فيما حوله . وعلى ظاولته ترسبت مثل لطخات حبر تبدأ صغيرة الحجم ما تلبث ان تكبر فتصبح بحجم الذباب ، شرب القهوة المرة فلم يهدأ. انزل من الطاولة معاملة جواز سفره . شيك ساعديه بقوة بينما حرك عنقه في اتجاهين كانت به رغبة ان يسأل عن علاج او مهدىء وكان بينه وبين الاخرين زجاج رقيق . اخذته عزة النفس . هكذا خيل اليه . لم يعد يرى احدا فلم يفعل .

وفوجىء بصديقه حمد وهو يقبل نحوه . جلس قربه مثل حمامة وديعة . اعتذر اذ عبر عن ذلك بلطف . لم يره منذ مدة لا بل رآه قبل يومين وهو يمر امام المقهى .كان نافع جالسا يقرأ فلم يرد ان يصرفه عن القراءة . اشرب ، ثم دفع الى جانبه قدح الشاي . تناوله صامتا وبدا حزينا كما كان قبل برهة . واستراحت في عينيه العميقتين هدأة مؤقتة استمرت اكثر من خمس دقائق . كانا خلالها صامتين مثل صديقين عادا لتوهما من رحلة شاقة . كانا وحيدين يتأملان الاشياء والوجوه وهي تمر خلل الزجاج . كان ينبغي ان تستمر هذه الحالة بلا ضجيج غير انها لم تدم . سأل :

ـ أتشعر بصداع ؟

كان يقرأ ذلك في وجهه واجاب :

ـ مجرد صداع .

ـ أشتري لك حبوبا ؟

ـ لا شكرا . لقد خف الان .

ولكي لا يدعه يسترسل سأله نافع :

ـ كيف احوالك هذه الايام ؟

ـ سيئة للغاية .

ـ ولكنك تشتغل الان .

ـ لا .. القضية ليست قضية شغل . هناك مشاكل .

ـ تقصد مشكلة (السيد)

تحيرت نظراته وظن في الحال ان شيئا ما قد حصل بالفعل وتخيلا معا صورة السيد وهو يمتطي حصانه بعد منتصف الليل . يرعد كالوحش في الزقاق . مسدسه بيده . وفوق رأسه عمامة خضراء . قال نافع لحمد :

ـ كيف هي مشكلة السيد ؟

ـ ما زال يبعث بجماعته اليّ . ما زال يهددني ..

ـ واذاء هذا ماذا تفعل ؟

ـ ماذا افعل ؟ لن أتنازل ابدا . وبالمناسبة فاني ..

ـ انك ماذا ؟

ـ اشتريت (مسدسا) من المهرب عجيل .

ـ يعني انك ربما تقتله .

ـ سأفعل ذلك .. سأكون مجرما . القتل هو النهاية .

« قل لي يا حمد . اكاد اشم . لو لم تكن له رائحة لما شممت اي شيء .. ماذا تقول اية رائحة ؟ رائحة القتل . للموت رائحة ايضا. لم يمت برصاص الاعداء .. من ؟ رهمة .. الغريب انه مات شهيدا ولم يكن كذلك . واختي ماتت ببطء في حجرة رطبة ، نصف مضاءة لم تقتل بسكين .. وسنية . اتعرفها ؟ أظنك تعرفها اكثر مني ، الم يخبرك عنها احد ؟ جارتك هي قبل ان اعرفها .. قتلت سنية ، اليس كذلك؟ قل لي يا حمد بحق السماء والارض :

ـ هل تعرف سنية ؟

ـ اعرفها ..

ـ قاومت القتلة ولم تملك سلاحا .
ـ سمعت بذلك ولم استغرب .
ـ لماذا قتلوها ؟

فكر في صمت.استحضر المرأة . نحّى وجهه.ود لو يغير الحديث. تخيل ذلك المساء ولاح لـه البيت القديم ، والفانوس المعلق في السقف عبر الزقاق . كان الضوء بعيدا . وتذكر عرف الحصان ، وصهيلـه ونبرات السيـد وتهديده في الليل حيث لا أحد .

ـ ما كان يحدث ذلك لو انهـا ..
ـ لو انها ماذا ؟
ـ لو انها تزوجت ...

فكر نافع في القضية . لم يسبق له ان سالهـا عن ذلك . وسال:

ـ اتعتقد انهـا تكره الرجال ؟

تذكر حمد الشعر النازل على الكتفين والوجه الذي لم يعرف لون الاصباغ وتذكر مسألة الشبهات وندم اذ هـو لم يفعل شيئا . كـان لصدرهـا خيال في راسه وكان لصوتها وقع لا ينساه .

ـ كيف تكرههم ؟ كانت تموت في الرجال . كان املهـا انتتزوج رجـلا .

في مساء ما دخلوا عليهـا .. لقد كبرت يا سنية .. اتركوني . ماذا تقولين؟ قلت لكم اتركوني .. لا تردي الطلب ، انت لا تعرفين شيئا في هذه الامـور .. لن اتزوج قردا . اخرجوا .. اخرجوا .. ستظلين وحيـدة وتموتين .. اعرف ذلك . دعوني حتى اموت وحدي ..

ـ وبعد هذا ماذا حدث بالضبط ؟

دخلا مثل لصين دارها . كانت تغتسل وحين خرجت من الحمـام رأتهما . كانا يسخران منهـا سخرية مرة ويشيران الى قبر حفراه . وكان هذا كافيا لان تكون تلك اللحظة امرأة مهووسة غير انها ضبطت نفسها فلم تصرخ بل طلبت اليهما الانصراف فلم يخرجا . وفي ذلـك المساء كانت الخطـة ان احدهمـا يحمي الداخل ويراقب الباب والثاني يشرع في القتل بسرعة متناهية فلم يجدا بدا من تجنيد نفسيهما لهذه المهمـة . كانت تقاتل كمـا لو انهـا في ساحـة معركة . كانت محاصرة. حاولت ان تنتحر بان تحرق جسدها بالنفط الابيض فلم تفلح في ذلك . وظلت مرغمـة على القتال ولم تكـن تملـك سلاحا ولو انهـا ملكته تلك اللحظـة لقتلتهمـا معـا .

*

افاق نافع سلمان صباحا ثم اكل دون شهية . تثاءب بعد الاكل ونظـر كالعادة ابعد ما يمكـن ان يرى . ابعـد نقطة . كانت الاشيـاء من بعيد تبدو مثل مربعات السطح الذي ينام فوقه . مغمورة بالغبار ، ساكنة ورصاصية غير ان حجرته شبه المضاءة شرعت الان تهتز وكانت تميل نحو ممشى الزقاق المحاذي ميـلا مباشرا . وفي اللحظة التيدخلها اطمأنت نفسه الى انهـا ما تزال تحتفظ بهيكلهـا وان جسده المسطول داخلهـا لم يسقط بعد .. المطـر لم يسقط هو الاخر . كـان يحلمبه. فكـر في المطـر والرحيل معا . كان ذلك منذ المساء . فكر في المطر .. ود لو يغسل الحجارة وسماء البارحة . كان غبار الامس اصفر ينتشر في راسه مثل سقف من جراد .. هبط مضطرب الوجه اذ سمع نقـرا خفيفـا على الباب وحين تعقب مصدر الصوت لـم ير أي شيء .والتفت الى الوراءقليـلا فلحظ الجدار المائل ما يزال قائمـا تقابله حجرةاخرى رطبة ، قليلة النور . حيـن اقترب منهـا احاطت به رائحة مريضـة استروح معهـا انفاس الموتى ، والمسنين ، والقتلة، والمعلمين ومهربـي الترياق والسلاح ، والبرابرة .. لم يستطع ان يطـرد كثافـة الرائحة خارج اطار المشى المعتم البارد .. ولم تكـن له القدرة على مقاومـة الاحساس بالاختناق داخل الفراغ والرطوبة . وحين خطا الخطوة الثانية نحـو غرفته شدت اسماعه اصوات رجات خفية ، تدقفي مكان ما تحت الارض فلم ير من اثر ظاهر سوى دقائق من غبار قديم بدات تتساقط ببطء عبر الشقوق التي في الجدار . وفي البرهـة التاليـة انفتـح الباب وتدفق نور جديد . نظـر اليهم بصمت وتذكر الوعد . وقال لهم ادخلوا .. فلم يتحرك احد .. كانت الوجوه مغلقة .. لم يعر لذلـك اقل اهتمـام . كانوا ثلاثة فقط ورابعهم هو . احضروا السائق حمدان ونادوا عليه . هل كل شيء جاهز ؟ متى يكون انطلاقنا ؟

« ان مفاصلك تئن يا نافع سلمان .. لا يهم .. ان راسـك مثقل بالتعب .. غير مهم . اعتبر ذلك فرصة اتيحت لك الان لاستراحة قصيرة في محطـة لـم ترها . كانوا في يوم مـا اصدقاءك . امـا اليوم فلا . انت الان غيرك بالامس . انهـم لا يعرفون هذه الحقيقة بل هم يتجاهلونها ، ويتجاهلون معها مشاعرك ايضا فانت لا ترى مـا يرون ولا تستجيب لهمبسرعة .. مع ذلك فالرحلة قصيرة ما اقصر الحلم اذن ..! بضع ساعات من الليـل والثرثرة ثم ترجع . ما اقصر الرحلة ..»

ثم ينتهي النهار عادة . والليل . ما نزال اشياؤه الثقيلة تقـل الرصاص تستبيح بقيـة الضوء المتمهلة فـي البؤبؤ تتنكفيء مثقلـة بالنعـاس .

كانت السرعة اعتيادية وحمدان هادىء خلف مقوده . صمت الاثنان في الخلف . وكان نافع قربه ليست به رغبة للكلام فلم يبد هو الاخـر رغبة مماثلـة . اسرع يا حمدان . فالوقت مساء . والمساء جميل .واسرع حمدان في الطرق الخاليـة ولم ينتبه لخطورة الطريق . شرعت الظلمـة تنتشر اكثر وكانت الاشجار تترامى بعيدا . والاضواء تترجرج وصـوت الريح في الخارج يزف الان بشكل مسموع . ضغط حمدان اكثر فاكثر وباقصى ما يستطيع انطلق ... غنّ ـ أنا ؟ ومن نعني غيرك ؟ ـ انـا مريض ـ غنّ ـ اتركوني ـ هل تحب اغاني الريف ؟ ـ صمت ... ـ اسرع يا حمدان ـ دخن . ألا تدخن ؟ ـ لا ـ بسرعـة اكثر يا حمـدان فالعمر ساعة وتنطفىء ـ قف والا رميت بنفسي ـ يخاف ـ لا يريد ان يموت ـ لا يشرب ـ يحمل اعباء الكون ـ لا يضحك ـ فيلسوف ـ غنّ ـ الى اين ؟ ـ صيحة .. ثم ضحك اسود متواصل ـ

هدأت الاصوات جميعا الا محرك السيارة ..

وعبر التواءات الطرق اجتازوا خلالها ارض الدغل وهي تمتلىء بالقش والحشائش السنجابية .. خلفوها ثم داسوا بارجلهم كسرا لورق قديم اخضر ، متطايـر يملأ الفجوات الصغيرة خلال الطريق الـى « اللطيفية » وعثروا بعشرات من خيم الفجر وهي تستريح هنا ، بعيدا عن « المدن » واذ تنتصب داخلها اقداح العرق الابيض وتسهر حتـى الصباح تنهض خلال ذلك الطقس اصوات الدرابك وتهتز الرؤوس :

ـ هلو .. يا بـه ـ
ـ هلو .. يا حلو ـ

لبست ثلاث غجريات ثياب الرقص المعتادة بالوان حمراء وخضراء ولفت كل واحدة شريطـا بنفسجيا حول خصرها . وتمايلت الارداف على الايقاع وترجرجت النهود . تناثـر الشعـر الفجري فوق الكتفين وكـان ينسرح امام انحناءة الجسد حتى يكـاد يلامس الارض . شلال متمـوج يهبط ممتزجا بعيون شابحة يختلط فيها النعاس بالشهوة .

ـ هلو عيني ـ
ـ هزي .. عمري ـ

اي شيء هو الان في الخارج ؟ كانوا يصخبون . اما نافع سلمـان فبدا غريبا بينهم وثقيل الدم . اي شيء هـو الان خارج حدود الخيمـة الفجرية ؟ لا شيء سوى ريح تصفـر ونقاط ضوء محاصرة بدت تتلامـع مـن بعيـد لتشيـر الى مواقع الخيم المتناثرة وهي تنفرز فوق ارض ملحية . لا شيء في الداخل ايضا . الوان مجوّفـة مثل ريح تهس في

القش .. ضحك يصعق ثم سرعان ما ينطفيء في دائرة من رماد .. قش يتناثر .. دخان ونبيذ يشرعان في النفاد .. والضحك الاسود تتضاءل رنته النحاسية . عيون فيها اصفرار ويرقان قديم طلعت من بين اكوام القش والقصب والبردي .. لم تعتد السهر .. تثاءب القوم . وبرك حمدان كالبعير قرب نافع ـ حمدان .. سكرت ؟ ها .. انهض الان فنحن الان نقترب من الصباح ـ وينتصب حمدان بوجهه الغروي ، وجبهته الصغيره وينظر بعينين صفراوين ، محاطتين بهالة زرقاء .. انك لم تفعل شيئا ولا يمكنك ان تفعل شيئا في المستقبل يانافع ، قال حمدان ذلك وفي نظراته مقطع من اغنية ريفية . فلم يفعل نافع شيئا ولم يأبه لكلامه بل ابتسم في غيظ .. وتحرك حمدان في مكانه حركة مفاجئة. رفع على اثرها ذراعه اعلى رأسه ملوحا بمسدسه الصغير .. اربع رصاصات اطن انها تكفي لتأمين طريق العودة قبل ان نرى بزوغ الصباح . المسافة موحشة واللصوص ينشطون في الساعات الاخيرة من الليل . انزل ذراعه ببطء وظل ابتسامة يلوح على شفتيه الغليظتين ولم يكد يضع سلاحه في حزامه جهة الخاصرة حتى دوت طلقة رصاص كانت قريبة جدا . وسحب حمدان المسدس . كان يتهيأ .

ـ ماذا تفعل ؟

ـ اريد ان اطلق ...

ـ تطلق ماذا ؟

ـ انك لا تعرف يا نافع معنى التحدي .. ان هذا الرجل الذي اطلق رصاصة واحدة يتباهى بانه يملك سلاحا . وانه قوي وانه يتحدى الاخرين وانه ...

واطلق حمدان رصاصتين الواحدة تلو الاخرى . انه يرد (الصاع صاعين) وفي اللحظة التي اطلق فيها حمدان رصاصتيه دوى الرصاص، وانهمر . ابتعد نافع عن صاحبه السائق واختبأ في عتمة المكان يتأمل، ويسرد في ذهنه مخترقا المدى الى ابعد منه بينما الرصاص ما يزال يتطاير في جوف الليل ، ينطلق من خيم الفجر كلها ، يئز في ارض خلاء . كان لايقاعه دوي هائل يثير الفزع . ارتاع . لم يكن يعني هذا انه جبان لان رصاصة قد تخطيء فتثقب الجمجمة ولم يكن يتمنى تلك اللحظة ولا ان يموت برصاص حمدان الذي ينطلق نحو اللاشيء ولا يصيب حتى اللاشيء نفسه . كان يريد فقط أن يعيش حتى فجر اليوم الثاني ليبدأ الرحيل .. حمدان يريد ان يثبت انه قوي .. اقوى من التيس . اطلقوا الرصاص جميعا . الكل اطلق رصاصا .. كلهم اغوياء. كلهم يطلقون الرصاص ويسددونه نحو الافق البعيد الخالي .. عرس من الرصاص . هلاهل لانتصارات غير موجودة اطلاقا .

وفي الرابعة صباحا حيث يبرد الجو في مثل هذه الساعة ويبرد الانسان ، كانت النار ما تزال موقدة ،قربوها منه اكثر . شعر نافع بالدفء . اعطته الفجرية يدها . شيء جميل ان يتحسس كفها الصقيلة كأنه يقبض على عصفور . فرّق ما بين أصابع كفها . خذ . قالت له. خذ هذا الخاتم الذهبي . اخذه متلمسا . انفرط الخاتم في كفه . سحبت هي يدها وجاء ابوها وجلس قبالته .. عيناه واسعتان تحيطهما اهداب سود كبيرة . فمه صغير ، وسحنته سمراء فيه شبه بابنته لا سيما اتساع العينين ولونهما العسلي وسمرة الوجه . كان نافع اللحظة ، يشتهيها . تمنى ذلك في المكان .

ـ ما هذه ؟

ـ بندقية . كما تراها .

ـ بندقية صيد ؟

ـ لا ...

وسأله . انت حارس الخيم ؟ فاجاب وسيدها ايضا . كانت البندقية عتيقة . قال نافع : اعطني البندقية من فضلك . انها ليست كسرية على اية حال . اظلم وجهه . امتعض الفجري . انه لا يريد ان يعطي سلاحه لاي كان . وعدل الفجري من كوفيته الحمراء المخططة بالاسود . رفع البندقية يضع اقدام عن الارض وفي اللحظة الاخرى وضع اخمصها فوق اصابع يده وحركها ببطء بحيث يمكنها أن تقف وحدها منتصبة بينما يظل ساعده الاخر دونما سند ، قائما . ابتسمت ابنته السمراء وامسك باليد الاخرى قامة البندقية فلم يدعها تسقط وقال لنافع : اظن انك لم تمر بعد بمثل هذه التجربة ولذني اظنك ستطيع ان تواصل مع الخانم .. هاك .. اعد ترتيب السلسلة ثانية واجعل منها خاتما كما كان . ولعب نافع وحاول ان يتفنن فن اللعبة فادركه الملل والنعاس معا ولم يستطع ان يغير ترتيبها . اعاد الخاتم الى الفجرية السمراء ، المنسهاه ، وابتعد الرجل عن الدائرة بينما اقتربت ابنته في العمه . وسأل نافع : هل هي عذراء ؟ وشك في عقل الرجل وتامل ابنه مرة اخرى . فلفت شفتاه ثم كلم الهواء بصمت . هذه البندقية فاسدة .. وقطع عليه حمدان خيط الشك فقد ظهر ثانية بوجه اكثر سماحه ، وبيدين فارغتين ويبدو ان رأسه بدأ يتوازن مع حركة جسمه . وقف بقامته الفارعة . وظهرت شفتاه غليظتين وسقطت نظراته فوق معطف نافع الذي صار قديما . اشار له بالجلوس.وجلس مثل اي طفل بريء ـ حمدان . انت ابن القرية اليس كذلك ؟ ـ ترامت في رأسه فجاة كل القرى المحيطة ببغداد . وانفردت واحدة .. هبطت اليه واضحة ، خضراء ، ساكنة . بدأ في الحال يحسب طول المسافة من اللطيفية حتى خان النص ومن الخان حتى السنية .

ـ حمدان ، هل صادف ان نذرت ؟

ـ نعم .. لماذا ؟

ـ وزرت كربلاء ؟

ـ نذرتها ..

ـ وسرت مسافة مئتي كيلو متر مترجلا ؟

ـ لا ، هذا لم يحدث ؟

« كان ذلك في القيظ اذن . مشى على قدميه حافيا . اطلق لحيته . ترك القرية ، وناسها . مشى ثم لم يصل . ثم مات في الطريق غير ملتفت لقريته . لم يمت . كان مذبوحا. هناك فرق بين الذبح والموت . الموت ذبحا شيء اخر .. شيء فظيع .. حين سقط على الرمل كانت الشمس فوق رأسه عمودية الضوء . ظلت القرية تنتظر قدومه . كان النذر في رقبته معلقا كالتميمة ، وكان الناس يعرفون رهمة ابن الستة والثلاثين يفي بنذوره كل عام .. حين حمل مع الجواميس جيء به الى الساحة . كان النعش مكشوفا تحت السماء . وكانت الشمس في الاعالي والزحام على اشده ..»

ـ حمدان انت من ضواحي الديوانية ـ اليس كذلك ؟

ـ ماذا تريد بالضبط ؟ تساءل حمد :

فقال نافع : لا اريد شيئا سوى ان اشبع فضولي ، ان الانسان فضولي بطبعه ، كثير التساؤل . ارجو الا تعتبر ذلك تحقيقا مقصودا. فقال حمدان اني اشم رائحة (خبيز) هنا . هل تشم انت ؟ فقال نافع: لا . وسكنت عيناه ، وتكوّر حمدان على نفسه شاعرا ببرد ثقيل يلف جسده ، لكن عينيه كانتا ترميان بعيدا . الان تذكر انه لم ينس ان يوصي امه المتعبة بالهايشة . حين تركها كانت على وشك الولادة .ستلد عجلا جميلا . ستفرح امه اولا . لا بد انها قبل ساعات من هذا الليل وقبل ان تسمع خوار البقرة التقطت باصابعها النحيلة كيس السكر الورقي . ورفعت من الكيس الاخر حفنة شاي اسود . ولا بد ان تجاعيد وجهها اتضحت ازاء اللهب الازرق بعد ان ملأت السماور بالماء . ولا بد انها فتحت صندوق العرس المرصع بنقاط باهتة من الزئبق وهي تحوط جهاته الاربع والتقطت ايضا ورق الشام الابيض الرقيق ، وكيس التبغ ولم تنس ان تجس باصبع واهنة تلك الصرة

السوداء المعقودة تحت الصندوق ، قـــد وضعتهـا كي تطـرد الشر والاشباح وتحفظ الخشب السائب جهة الماء .

ـ حمدان ، اتعرف قرية (السنية) ؟

ـ زرتها اكثر من مرة . انا سائق . انت تعرف عملنا . ودهش حمدان . انه سؤال جديد .. كانت الظلمة في الخارج مكتنزة لا حدود لهـا . ولم يدعه دون جواب . ماذا تريـد من سؤالك ؟ انـي لا افهمك. همهم نافع وحده وسأل ان كـان حمدان يعرف رجلا اسمه رهمة وتساءل حمدان : مـن هو رهمة بحق الحسين ؟ وصمت .. لا يريد ان يوضـح اكثر وبالطبع لم يكن حمدان ابن القرية يعرف رهمة البديري ابن القرية الاخرى . وصحيح انه زارهـا اكثر من مرة بحكم عمله سائقـا متنقـلا لكنه من غير الصحيح انه يجب ان يعرف شخصا اسمه رهمة .. كـان الليـل اقرب الاشيـاء حضورا اليهمـا معا . وفكر حمدان فلم يستطع ان يتخيل حتى ملامح لهذا الغائب ولم يكـن وحده . فالناس في قريته كما اخبره نافع لم يكونوا جميعـا يعرفون من هو رهمـة البديري على وجه الدقـة . وحيـن سمعوا بموته لم يكترثوا للامر كثيرا ولم يقولوا سوى انه شهيـد ينبغي ان يضاف اسمه الى قائمة الشهداء الابرار ولكنه لـم يكـن شهيـدا بالمرة . كـان نافع سلمان وحده يعرف هذه الحقيقة. لقـد رآه مقتولا . هذا صحيح . وليس كل مقتول شهيدا بالضرورة قبل ان يموت التقى به .. اين ؟ كـان ذلك اللقاء في مدخل السـوق المكتظـة بالزوار من كل مكان . حيـن نظر رهمة لم يكـن قبل لحظـة يعرف هذا الاسم ، او يسمع به . اثاره المنظـر فتساءل ببراءة لمـاذا ثقوب في السقف ؟ كانت الشمس خلف مثلث السوق ضحلة النور فقيل له بسبب الرصاص .. حسنا . فالمسألة على جانب من الاهمية .. يبدو ان معارك كانت تدور هنا .. اليس كذلك ؟ اجابوه بالنفي .. فمـاذا اذن ؟ مجرد رصاص ينطلق .. عجيب . من يطلق؟ فقال نافع . يكفي ان تعرف اذا كنت من ابناء القبائل ان هذه المدينـة مشهورة تاريخيـا بالهوسات الكبيرة ومشهود لهـا بهذا . صمت الزائر رهمة وهز رأسه موافقـا ونظـر الى نافع بعينين قرويتين بينمـا ظل نافع يحدق فـي هيئته . وسأل لمـاذا انت حافي القدميـن ؟ وفهم نافع الامر حين نطق رهمـة بكلمـة النذر .

« ترجل ولم يصل . وجيء به محمولا . بكت امراة عليه. صبت دمعـا سخينا . ظنته ابنهـا ولم تبك بعد لحظة . المسافـة طويلة جدا . وقد نذر ان يمشي كل المسافة . لا بد ان تكـون كذلك فالاجر على قدر المشقة .. والاجر ورقـة لم تلمسها يداه .. لم تكـن ورقـة التعب وحدها نذرا ولم يدر انهـا كلفته دما . وسمي شهيدا ولم يكن شهيدا ».

*

بكر في الصباح واطمأن الى وضع كل ما يحتاجه في حقيبته . تحسس جنبه الايمـن فتاكـد من وجود محفظة نقوده الجلدية التي دسها البارحـة . نظـر الى معطفه البني اللون فرآه جديدا . مسح غرفتـه بعينيه فلم يـر شيئا من الممكـن ان يحمله معه . رمى بجوربيه الوسخين وارتدى غيرهمـا . مسح بجوربه المثقـوب غبارا تراكم فـوق المـرآة الوحيدة المعلقة . رأى فيهـا وجهه اكثر شحوبا فلم يأسف لذلك ورأى خطين متقضنين يحيطان باجفانه المسترخية يضفيان هالـة زرقـاء تبرز معهـا عضلات الوجه . وفي المرآة رأى خلفه النافذة الاخـرى التي كـان يرى عبرها سنية . كانت النافذة مغلقة . حين رفع كفه الى ما خلف رأسه الكث الشعـر عثرت اصابعه بدملـة مختفية خلف اذنـه اليسرى. لم ينتبه لها من قبل . بدت صغيرة مثل شامة بيضوية احمرت بعـد سلـخ .

هبط الدرج وترك الباب مفتوحا . لم يقل لاحد انه مسافر . لـم يلتفت الى اي من بيوت الجيران في الزقاق الذي بدا مهجورا . كانت مصادفة الا يرى احدا يتحرك . بدت الشمس بعيدة وظلالها المرمية على الزقاق لم تكـن واضحـة بينمـا السماء بدت رائعة . لم يكـن الهواء رطبـا في حيـن تحسس وهو يجتاز منعطفاته يرشح رطوبة يمتـد حتـى المنحنى الخرب ، المؤدي الى مقهى الحاج خضير .. تساءل نافع ان كان تصميمه اشد مـا يكـون اليوم منه في وقت اخر . وفكـر . ينبغي ان يقضي ساعـة على الاقل ليراجع خلالهـا كل الاوراق التي يحملهـا وبدأ يفتح دفتره الصغير فلم يلحظ اي شيء وسرعان ما اغلق الدفتـر بوجه صاخب غير ان عينيه رغم ذلك بدتا هادئتين . حين وضع علـى الطاولة امامه ورقـا ابيض ، وجواز سفر ، مغلفـا بجلد اخضر سميـك لحظ اسمه مكتوبا بحبر باهت ، وخط رديء في المستطيل الموجـود اعلى المغلف .. اسنـد مرفقه على الطاولة وفكر . ستظل كل الاشيـاء مرهونة لخيوط العنكبوت وزوايـا الحجرة المائلة .لا ابعث بعنواني . لا استقبل ايـة رسالة . لا اريـد ايضاحا من احـد ولا استفسارا . لا اريد ايـة مساعدة . اريـد فقط ان انسى كل شيء يربطني بهذه البقعة الرمادية .. واظل في رأسه شبح التنين وهو يقعي داخل اطار المقهى. ونظر . كـان الناس يروحون ويجيئون كالعادة .. وجوه تتكرر مفرغة من ايمـا تعبير تصفعه بريح بغيضة ، مستمرة .. اضطرب الان . هناك رجل غير مختف يرصده بعينين سريتين . لم ينتبه . انه مراقب الان وربما هـو منهم .. الرجل ينحو باتجاهه . هو المقصود اذن .. كانت عظام وجهه الممتقع بارزة وشعـر رأسه لا يكـاد يبيـن . كـان يرتدي بنطلونا مدعوكـا من كل جانب وواسعـا ظاهـر الاتساع يعلوه قميص ابيض ، مفتوح من اعلى قليـلا . كـان لكتفيه منخفض كالسهب يتضح اكثـر حين يميل بنصفه الاعلى نحـو الاسفل وهو ممسك برزمة اوراق . بدا وجه نافع متوترا ، واعصابه متعبة . من عساه يكون ؟ من هذا ؟ ماذا يريـد ؟ وخطا خطوتيـن متراجعـا ما لبث ان تقدم بخطى اوسع فاظلمت عينا نافع حالما احس باقترابه وتوترت يداه ، وشعـر كان احدا يزرقهمـا بابر غامضة ، وحاول اشغال نفسه بالنظـر داخل المقهى فلم يستطع اخفاء قلقه بينمـا اقترب الرجل تلـك اللحظة وقال دون مقدمـات :

ـ انت نافع سلمـان ؟

اختل توازن الاشياء في عينيه وعادت تلـك النقاط المتغيرة اللون للظهـور وهي تتكاثر عبر زجاج الواجهة الامامية ، وفوق الطاولة ،وعلى فم المبلـغ الذي وقف كالحرباء .. وفي ورقـة التبليغ الممدة امامـه حدق نافع في اسمه وعنوان مدرسته ورقم الدار فهز رأسه واستسلمت عيناه لضوء متغير وقال للمبلغ :

ـ ماذا تريدون مني ؟

وانشغل هذا باوراقه وتقليبها والقلم في اصابعه معلق من طرف واحد . ولم يكد يدني وجهه اكثر من وجه نافع حتى بلع ريقه فبـدت عضلات رقبته وتلمظ شفتيه بلسان اصفر طويل وقال :

ـ ـ غدا السـاعـة العاشرة تحضر امام هيئة التحقيق ..

انحبس الهواء في صدر نافع سلمـان وتضاءل النور في عينيـه ولم يعـد يرى الاشياء كمـا كـان يراهـا قبل لحظة. كانت يده اليمنى على الطاولة ثقيلة جدا بدت خامدة ، عديمة النبض لا لون لهـا .بدت منهارة كيـد مقطوعـة وضعت للتو امامه . حركهـا كمـا لو انه يحـرك غصنـا لشجرة ميتة . وفي هذه الاثنـاء سقط شيء ما على الارض المرشوشة بالماء .. سمع صوت سقطته فقط . ورآه بعد برهـة يغطس في بركـة ماء اسود . كان جلده الاخضر ما يزال محتفظـا بخضرته ، كان اسمه مكتوبا فوق الجلـد .

بغداد موسى كريدي